



في كتابه "البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط على عهد فيليب الثاني" يدلل المؤرخ الفرنسي العظيم فرناند بروديل (1902-1985) على أن المجتمعات المقيمة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشرق والجنوب تنتهي إلى حضارة واحدة في عمقها، رغم تباين العوالم الدينية والعرقية والسياسية التي تنتهي إليها تلك المجتمعات. ويمكن توسيع نظرية بروديل بالقول إن عالم المتوسط -بمنطق الجغرافيا السياسية- مجال سياسي وإستراتيجي واحد أيضا.

وولد الربيع العربي منذ البدء ظاهرة متوسطية، فأربع من دول هذا الربيع -تونس وليباً ومصر وسوريا- تقع على ضفة المتوسط، كما أن المغرب التي وصلتها بشائر الربيع في بداياته، ثم احتوت خطر الثورة بخطوات استباقية من الإصلاح الوقائي دولة متوسطية، ولم تخرج عن هذه الظاهرة المتوسطية من دول الربيع العربي سوى اليمن المعروف -من بين دول الجزيرة العربية- بتفاعل أهله مع ما يجري من تحولات سياسية في مصر.

بيد أن النخبة السياسية الأوروبية لم تتصرف طبقاً لهذه المعادلة الجيوسياسية خلال الأعوام الماضية، فلم تتعامل مع الربيع العربي بمنطق إنساني متفهم يساند حقوق الشعوب في الحرية والكرامة، ولا بمنطق سياسي وإستراتيجي حكيم يدرك وحدة عالم المتوسط، ويسعى لتوقي التيران التي شبت في بيوت الجيران.

لقد تعاملت النخبة الأوروبية مع الربيع العربي -تقليداً للأميركيين والروس والإيرانيين- بمنطق استعماري بغرض، يحرص على إبقاء الشعوب العربية في نير العبودية بأي ثمن، وتحكمت في الأوروبيين عقلية الاستعمار السياسي بعد رحيل الاستعمار العسكري عن المنطقة، إذ وجد المستعمرون السابقون أن التحكم في الشعوب العربية من خلال حكام مستبدین قاهرين لشعوبهم، مقهورين أمام الخارج، هو السبيل إلى صيانة المواريث الاستعمارية.

وقد جاءت هجمات باريس الدامية تذكيراً للجيран على الضفة الشمالية بأمررين على قدر كبير من الأهمية: أولهما أن عصر الفصل بين ضفتي المتوسط قد انتهى، فإما أن يعيش أهل الضفتين معاً بحرية وكراهة، وإما أن يغرقوا معاً في بحر من الدماء.

وثانيهما: أن عصر الاستعمار السياسي قد ولّ، وأن سياسات الغرب القائمة على حماية المستبددين ووأد ثورات الشعوب سياسة خرقاء.

ومن قبل هجمات باريس كانت موجات اللاجئين تكفي لذكر الأوربيين بهاتين الحقيقتين، لكن الأوربيين استأسروا – فيما يبدو- للمنطق الأميركي الإسرائيلي، ولم يصوغوا رؤيتهم الخاصة للأحداث التاريخية الجارية على الضفة الجنوبية.

ويتأسس المنطق الأميركي الإسرائيلي على أن المنطقة العربية فيها فائض من البشر، وفائض من الدين، وفائض من المال، وأنه يجب استنزافها داخليا، قبل أن يتحول فائضها البشري والديني والمالي إلى طاقة بناءة تخرجها من الوصاية والتبعية، وتنقلها إلى الاستقلال السياسي والإلقاء الحضاري، وأحسن طريقة للاستنزاف – بهذا المنظور- هي تحويل ثورات الشعوب العربية إلى مصهرة دموية، ومنبحة مفتوحة لا غالب فيها ولا مغلوب.

لكن الأوربيين نسوا أنهم ينتمون إلى عالم المتوسط الذي تحدث عنه بروديل، وأن قدرهم الجغرافي يفرض عليهم اتباع سياسات أكثر حصافة، ونظرا إلى عواقب ما يفعله الأميركيون الذين يعيشون بعيدا عن المنطقة، بين محظيين، لكن المتابع للسلوك السياسي الأوروبي عموما – والفرنسي منه خصوصا- بعد هجمات باريس الدامية لا يمكن أن يتغافل كثيرا.

فخطاب هولاند بعد هجمات باريس يكاد يكون ترجمة فرنسية يشبه خطاب جورج بوش بعد هجمات 11 سبتمبر 2001؛ فقد تحدث هولاند عن استهداف تنظيم الدولة لفرنسا لأنها "دولة حرة"، وقال إنهم لم يهاجمونا بسبب ما نفعله، بل بسبب من نحن".

وهذه ترجمة حرافية لمقوله سطحية قالها جورج بوش بعد هجمات 11 سبتمبر، كما ظهر من العنتريات في خطابات هولاند الأخيرة واستعراض القوة الجوية والبرية الفرنسية ما يذكّر بقول رامسفيلد بعد هجمات 11 سبتمبر: "لا بد من تأديب العالم على هذه الهجمات"!!

وهكذا تبين أن القادة الأوروبيين ليسوا أفضل من القادة الأميركيين من حيث الخيال الإستراتيجي والحكمة السياسية.

ويبدو أن النخب السياسية الأوروبية لم تتعلم الكثير خلال الأعوام الـ14 الفاصلة بين هجمات 2001 وهجمات 2015، رغم أن المواريث الاستعمارية والقرب الجغرافي يؤهلان أوروبا لمعرفة المنطقة العربية بأحسن مما يعرفها الأميركيون، والتحرر من اجترار التفسيرات السطحية التي يطبعها التضليل والتطفيق.

فأوروبا وأميركا لا تعانيان من "الجهل النزيه" بجذور هجمات باريس وجذور ظاهرة تنظيم الدولة، بل من "الجهل المتعمّد" المنبع من التشكيك بسياسات الاستعمار السياسي منذ نهاية الاستعمار العسكري للمنطقة العربية.

وقد بُحثت تركيا من نداء الأوروبيين والأميركيين إلى التعاون لوقف المذبحة المفتوحة في سوريا، ولو بعمل رمزي بسيط، مثل إعلان منطقة آمنة بطول تسعين كيلومترا وعمق خمسين كيلومترا، وتزويد الثوار ببعض صواريخ مضادة للطيران تكون رادعا لسفاح دمشق وبراميله المتفجرة التي تحصد أرواح العشرات من الأبرياء كل يوم.

وبدلا من التعاطي الإيجابي مع هذه الدولة المسلمة القوية – التي اتخذها الغرب سدا منيعا بينه وبين الزحف الشيوعي الأحمر خلال أكثر من نصف قرن- غدر الغربيون بتركيا وتركوها منكشفة أمام الحرب الطاحنة على حدودها الجنوبية في سوريا، وأمام الهمجية الإيرانية والروسية هناك.

كما نسي الأوروبيون أن لشعوب المنطقة معهم تاريخا طويلا من الاستعمار السياسي والعسكري لن تندمل جروحه بسهولة،

ولن ينمحى من الذاكرة بين عشية وضحاها.

يقول علماء النفس إن الضحية أقوى ذاكرة من الجلاد؛ والسبب أن الضحية تسعى إلى رفع الظلم ورد الاعتبار الإنساني لنفسها، أما الجلاد فيسعى إلى غسل ضميره الميت من ماضيه المُعْتَم لكي يسْوِغ لنفسه الاستمرار في الإجرام والإصرار على الظلم.

و واضح أن الفرنسيين نسوا أن المسار الذي اتبعته فرنسا لoward الديمقراطية في الجزائر في التسعينيات، و تحويل الديمقراطية الوليدة في الجزائر آنذاك إلى مذبحة مفتوحة، هو المسار ذاته الذي تتبعه أميركا وأوروبا اليوم في دول الربيع العربي.

و هل يخفى على عين البصیر التواطؤ الأميركي مع السيسي و انقلابه الدموي، الذي اغتال حلم الشباب المصري، وقتل الآلاف في وضح النهار، ووضع عشرات الآلاف من أحراز مصر وأبرارها في غياهـ السجون؟!

و كل ذلك تقليد لجرائم فرنسا في التواطؤ مع الانقلاب الدموي في الجزائر منذ عقدين، وهو الانقلاب الذي انتهى بحرب أهلية دامت عشرة أعوام عجاف، و قُتل فيها نحو ربع مليون جزائري، بتواطؤ بين فرنسا وجنرالات الجزائر الذين صنعتهم على عينها، وأرضعـتهم بلـبانها.

و كأن دماء المليون ونصف مليون شهيد الذين ارتفعوا إلى عـلـيـين لتحقيق استقلال الجزائر عن فرنسا لا تكفي لإطفاء ظمـاـ فـرـنـسـاـ إـلـىـ الدـمـ العـرـبـيـ المـسـلـمـ.

لكن "البروفة" الفرنسية في الجزائر لا تصلح لثورات الربيع العربي، و عام 1988 ليس عام 2010 إلا في أذهان البلـداءـ الذين اعتادوا استعباد الشعوب، و التـحكـمـ بمـصـائـرـهاـ منـ وـرـاءـ الـبـحـارـ،ـ وـلـمـ يـفـهـمـواـ أـنـ التـارـيخـ دـائـبـ الـحـرـكـةـ.

منذ أكثر من نصف قرن كتب المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون: "إن الغرب لم يَرَ في الشرق الإسلامي إلا ما كان يريد رؤيته". ويمكن القول - توليداً لمقولـةـ رودـنسـونـ - إنـ الغـربـ لمـ يـسـمـعـ منـ الشـرـقـ إـلـاـ مـاـ كـانـ يـرـيدـ سـمـاعـهـ؛ـ فـهـوـ يـرـيدـ أنـ يـسـمـعـ منـ يـدـيـنـ الـذـيـنـ يـهـاجـمـونـ الـغـربـ دونـ أـنـ يـذـكـرـ الغـربـ بـأـنـ سـيـاسـاتـهـ العـدوـانـيـةـ وـدـعـمـهـ الـظـاهـرـ وـالمـضـمـرـ للـمـسـتـبـدـينـ السـفـاحـينـ،ـ وـتـواـطـؤـهـ فيـ قـعـمـ الشـعـوبـ الـعـرـبـيـةـ وـمـصـادـرـ حـرـيـاتـهـ،ـ وـلـوـ أـمـالـهـ إـلـاـنـسـانـيـةـ الـمـشـرـوـعـةـ فـيـ الـحـرـيـةـ وـالـكـرـامـةـ؛ـ هـيـ الأـسـبـابـ فـيـ كـلـ مـاـ يـحـيـقـ بـهـ وـمـاـ سـيـحـيقـ بـهـ مـنـ هـجـمـاتـ.

إن لكل نص سياقاً يفسـرـ مـغـزـاهـ،ـ وإنـ لـكـ فعلـ دـافـعـ يـعـينـ عـلـىـ فـهـمـهـ،ـ وـالـنـخـبـ الـغـرـبـيـةـ تـرـفـضـ أـيـ حـدـيثـ فـيـ السـيـاقـاتـ وـالـدـوـافـعـ،ـ لأنـ ذـلـكـ يـكـشـفـ نـفـاقـهـ وـتـواـطـؤـهـ مـعـ الـظـلـمـ الـفـادـحـ وـالـهـمـجـيـةـ الـمـسـلـطـةـ عـلـىـ الشـعـوبـ الـعـرـبـيـةـ.ـ وـيـسـتـلـازـمـ التـعـاطـيـ الـحـكـيمـ معـ آـثـارـ هـجـمـاتـ بـارـيسـ الـدـمـوـيـةـ،ـ وـاجـتـنـابـ مـزـيدـ مـنـ هـذـهـ الـفـجـائـعـ،ـ تـأـمـلاـ نـزـيـهاـ فـيـ الدـافـعـ وـالـمعـنـىـ وـالـسـيـاقـ،ـ لـاـ سـيـاقـ الـهـجـمـاتـ فـقـطـ،ـ بلـ سـيـاقـ مـيـلـادـ تـنـظـيمـ الـدـوـلـةـ وـتـمـددـهـ وـجـازـيـتـهـ لـآـلـافـ الشـبـابـ الـمـسـلـمـ،ـ بـمـنـ فـيـهـمـ مواـطنـونـ غـرـبيـونـ،ـ كـمـ يـسـتـلـازـمـ التـعـاطـيـ الـحـكـيمـ معـ آـثـارـ هـجـمـاتـ بـارـيسـ إـدـراكـاـ لـوـحـدـةـ عـالـمـ الـمـتـوـسـطـ حـاضـرـاـ وـمـسـتـقـلـاـ.

و من الواضح أن الدافع وراء هجمـاتـ بـارـيسـ الدـامـيـةـ -ـ مـثـلـ الدـافـعـ وـرـاءـ هـجـمـاتـ 11ـ سـبـتمـبرـ -ـ هـوـ الـإـحـسـاسـ بـالـظـلـمـ وـالـسـعـيـ إلىـ الـإـنـصـافـ،ـ وـمـنـ الـوـاضـحـ أـيـضاـ أـنـ التـهـربـ مـنـ قـدـرـ الـجـغرـافـيـاـ وـالـتـارـيخـ الـذـيـ رـبـطـ مـصـائـرـ أـورـوباـ بـمـصـائـرـ تـرـكـياـ وـالـعـالـمـ الـعـرـبـيـ لـنـ يـفـيـدـ الـأـورـوبـيـينـ شـيـئـاـ بـعـدـ الـيـوـمـ.

أما تنـظـيمـ الـدـوـلـةـ فـهـوـ لـيـسـ ثـمـرـةـ مـنـ ثـمـارـ الثـورـاتـ الـعـرـبـيـةـ،ـ كـمـ يـحـاـوـلـ الـمـسـتـبـدـونـ إـلـيـاهـ بـذـلـكـ،ـ وـإـنـماـ هـوـ ثـمـرـةـ مـنـ ثـمـارـ الثـورـةـ الـمـضـادـةـ الـتـيـ قـادـتـهـاـ أـنـظـمـةـ عـرـبـيـةـ غـبـيـةـ،ـ بـمـظـلـةـ سـيـاسـيـةـ غـرـبـيـةـ.

فالثورات العربية أخرجت إلى العالم ذلك الشباب الرائع الذي أذهل العالم بسلاميته ومثاليته وحسه المدنى في شارع بورقيبة بتونس، وميدان التحرير بالقاهرة، وفي شوارع صنعاء ودمشق، قبل أن تفتال الثورة المضادة آماله وتغرقه في دمائه.

وتنظيم الدولة ثمرة مريرة لهمجية الثورة المضادة وتوطئ المال العربي، والنفاق الغربي، والغرور الإيراني، والعنجهية الروسية.. وكل إباء بالذى فيه ينضح.

وقد تعاملت الحكومات الغربية مع ظاهرة تنظيم الدولة بانتهازية مطلقة، فاعتبر الغربيون تنظيم الدولة ظاهرة محلية، مُعينة على استنزاف ثورات الشعوب وتلطيخ صورتها، وخلط أوراقها، لكن التنظيم تحول مؤخراً إلى ظاهرة عالمية، وتبيّن أن الانتهازية الغربية لها ثمنها الذي سيدفعه الغربيون عاجلاً أو آجلاً.

وقد عبر الخبير في شؤون الإرهاب بروس هوفمان في مؤسسة "رائد" الأمريكية عن الانتهازية الغربية في التعامل مع ظاهرة تنظيم الدولة فقال إن المراهنة على أن تنظيم الدولة ظاهرة محلية -يمكن حصرها ضمن حدود العراق وسوريا- كانت جزءاً من "التفكير الرغائي" السائد في الغرب (نيويورك تايمز 14/11/2015).

وفي تعبير "التفكير الرغائي" الذي استخدمه هوفمان هنا دلالة مهمة، فهو يدل على أن النخبة الأمريكية والأوروبية تحكمت فيها "الرغبة" في أن يظل تنظيم الدولة جزءاً من مصهرة داخلية، تستنزف الشعوب العربية وثوراتها، وسعيها إلى الحرية من الاستبداد السياسي، وإلى التحرر من الاستعمار السياسي، دون أي أثر سلبي على المتواطئين مع الاستبداد من وراء البحار، ثم أفاقت تلك النخبة فجأة على فيض الدماء وتناثر الأشلاء في عاصمة الأنوار الفرنسية.

لكن "صديقك من صدّقك، لا من صدّقك" كما يقول المثل العربي. والشعوب العربية تنادي الأوروبيين بلسان الحال والمقال: "أوقفوا ذبح الأبرياء على ضفتى المتوسط، سواء كانوا في حلب والرقة أو في باريس وبروكسل".

أما حكام القمع في الدول العربية فليسوا صديق صدق، ولذلك فهم يتباكون مع الأوروبيين على قتلهم، وهم فرحون بقتالهم في أعماق قلوبهم - لأنهم بالإرهاب يحكمون وعلى الإرهاب يتغذون - ثم يأخذون أجراً دموع النائحة المستأجرة: توطئاً غربياً معهم في ظلم شعوبهم، وقتلًا للأحرار الأبرار من مواطنיהם، بسلاح غربي، ودعم أمريكي، ومظلة سياسية غربية.

لقد آن الأوان ليفكر الأوروبيون في عالم المتوسط الواحد؛ فمصير أوروبا وقرارها أصبحا مرتبطين أكثر من أي وقت مضى بمصائر الشعوب العربية على الضفة الجنوبية والشرقية، كما أصبحا مرتبطين بمصائر الشعب التركي على الضفة الشمالية الشرقية منه.

فهل ستفهم النخب الأوروبية أن الربيع العربي ظاهرة متوضطية قبل فوات الأوان؟ أم ستظل حكومة بالأنانية السياسية، والعقلية الاستعمارية، حتى تتحول عواصم الأنوار الأوروبية الأخرى إلى عواصم للشروع والدموع؟!